سمَّيتها نجوى

مروه جمال الدين

تلك الأيام..

نعم.. أتذكر تلك الأيام.. وقتها كنت أخطو خطواتي الأولى نحو الخمسة عشر ربيعا..

أتذكر بوضوح تلك السيدة بشعرها الأشعث وملامحها.. أنا لا أتذكر ملامحها جيدا ، فقد اختفت تحت أطنان من الوسخ والحزن..

أتذكرها فقط بملابسها الممزقة وقدميها الحافيتين، أتذكر جسدها الهزيل المرتعش وهي تقف أمام صندوق القمامة تنبش هي والقطط معا عن بقايا الطعام!

كنت أدير بصري كلما رأيتها اشمئزازا.. أستمع بدهشة لحكايات صديقاتي تارة عن جنونها وتارة عن كنوز الأموال التي تخفيها داخل جحرها الصغير وكأن نبشها للقمامة هواية!

نظرت لوالدي متسائلة ببراءة: أبي، لماذا تنبش تلك السيدة القمامة بحثا عن الطعام؟

نظر لي مليا ثم أجابني بهدوء: لأنها فقيرة ولا تجد قوت يومها..

اندهشت بشدة وأجبته بعفوية: لكن هذا طعام فاسد، كيف يأكل الإنسان من القمامة؟!

كانت إجابته سريعة.. مقتضبة.. قاسية: امرأة مسها الجنون!

قطَّبت جبيني وعدت لأتأمل معركتها الواهية من النافذة، تابعت بإصرار:

obeikan.com

هي تحتاج للمساعدة.. أنا أود مساعدتها ربما أشاركها بعض الطعام الجيد أو...

قاطعني بغضب قبل أن أكمل عباراتي: إياكِ الاقتراب منها، هل تفهمين؟ لا تقربي تلك المرأة.

في أقصى خيالاتي جنونا كنت سأقول: إن تلك المرأة هي أمي وإن هذا الرجل قد فزع لتهاوي جدران الماضي، لكن أمي الحقيقية قابعة بالمطبخ تتفنن في صنع أشهى المأكولات من أجلنا، تلح علينا في تناول ما يفوق طاقتنا من الطعام حتى لا ينتهي الأمر بفائضه في القمامة!

أذعنت لرغبة أبي عن دون اقتناع حتى عندما علمت سبب ذعره لم أهتم؛ فهو مثل الكثير من الآباء يفزعه نبأ اختطاف صغيرة على يد أحد المتسولين طمعا في المصاغ أو تلك القضايا الشائكة التي تحمل دائما صك الغموض «مختل عقليا»..

تغاضيت عن يأسها أمام وليمتها الضائعة مرارًا وتكرارًا؛ فالقمامة لا تجود سوى بضنك الرزق وخدش الهررة الذي يبدو أنها اعتادته كما اعتادت جفاء البشر، أم ربما نحن من اعتدنا.. اعتدنا الفقر، الحاجة، العوز! اعتدناها حتى فقدنا نكهة ألمها.. عفوا نحن لم نستشعر ألمها.. ربما لأننا لم نتذوقها.. فقط اكتفينا بمتعة المشاهدة!

لكني لم أستطع المكوث أكثر من ذلك بصفوف المشاهدين.. وجدت نفسي في سابقة لم أقترفها من قبل أعصي أوامر والدي وأتوجه نحوها بإصرار، أقترب منها غير عابئة بشيء سواها.. ظلت لوهلة ترمق يدي الممدودة نحوها بحذر. . الشطيرة تبدو شهية للغاية وهي حقا تحتاج إليها.. ابتسمتُ دون حديث وتركتُ وجبتي الثمينة بين يديها وتوجهت لمدرستي دون أن أستدير نحوها.. فقط تركتها تستمتع بطعامي وأبقيت لنفسي مذاق جوعها..

الجوع.. إحساس ربما اختبرته كثيرا، لكنه كان دوما مغلفا بدثار رقيق..

هادئ.. يحمل بين طياته عبق مجهود أمي أمام الموقد بنهار رمضان ووليمة تحمل من الصنوف ما يمحو آثار الكلمة من عقلي.. لكن هي وأمثالها الكلمة قابعة بعقولهم تأبى الرحيل، شطيرتي الشهية وربما بقايا طعام جيد من أحد المارة هي وليمة تستحق احتفالا.. احتفالا لمست آثاره بعينيها عندما تقدمت نحوها باليوم التالي أحمل وجبة غداء ساخنة، عندها لمست أثر السعادة على هذا الوجه البائس ربما لأول مرة.

ربت زوجي على قبضتي المرتجفة عندما لاحظ شرودي كالعادة بغيمتي الخاصة من الذكريات.. الرعشة ما زالت تنتابني كلما تذكرت موتها، جنازتها البسيطة للغاية تكفل بها أحد سكان المنطقة، بداية من تحضير الكفن حتى مواراة جسدها بمقابر الصدقة.. كنت قد اعتدتها.. أتوجه نحوها يوميا بنصف حصتي من الطعام، أتشارك بها معها في سرية تامة غير مبالية سوى بحديث أشرف الخلق عليه الصلاة والسلام: «تصدقوا ولو بتمرة، فإنها تسد من الجائع، وتطفئ نار الخطيئة كما يطفئ الماء النار»..

ذهبت، غادرت الحياة دون أن ألمس من ملامحها سوى الابتسامة التي كانت تكافئني بها مع كل زيارة، دون أن أعلم سنها.. مرضها.. قصتها.. اسمها!

فقط بعد موتها بأيام علمت اسمها وبعدها بسنوات عدة استطعت إنجاز هذا الصرح.. تلك الدار التي بدأت فقط بخمسة أفراد، وها نحن الآن قاربنا على الخمسين، بالقليل من التبرعات والفائض عن الحاجة كانت شرارة البداية حتى استطعت بفضل الله توفير تلك الجدران من أجل هؤلاء ممن لا مسكن لهم، ابتسم لي رفيق عمري وهو يرمق نزلاء المكان برضا.. رجال ونساء خانهم العقل والزمن ولا ينشدون سوى قوت النهار وسُكنى الليل.. على الرغم من مرور الزمن، ما زلت أرى ابتسامتها في وجوههم.. عوزها بألم كل محتاج.. حروف اسمها مسطورة بإتقان فوق صرحٍ كانت هي شعلة بدايته..

دار هي ملجأ كل محتاج..
سميتها نجوى..

obeikan.com